الفصل الأول

المبحث الأول

مسيرة الإيمان

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[آل عمران: ٣٣].

كلما انحرفت البشريّة بغواية الشياطين ، قيّضَ الله لها من يصحح مسيرها ، ويرسل رسولاً يقود هذه المسيرة لطريق عبوديّة الله وإقامة الخلافة في الأرض.

وهكذا أرسل الله نوحاً عليه السلام ليجدّد مسيرة آدم عليه السلام ، إذ دعا قومه قرابة ٩٥٠ عاماً لعبادة الله وترك غيره من الأوثان ، فلمّا لم يؤمن به قومه ، أيّده الله بمعجزة السفينة الّتي صنعها ليكون فيها من آمن ، ويغرق المخالفون للدعوة ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].

وكان له من الأبناء[1]:

١ ـ **سام**: وهو أصل العرب والفرس.

٢ ـ **حام**: ومنه القبط والبربر.

٣ ـ **يافث**: ومنه الروم.

ومن سام العمّوريّون.

ـ رحلوا على دفعتين في الألف الرابع قبل الميلاد:

١ ـ إلى جهة الشرق ، الدفعة الأولى في وادي الرافدين ، وهم (السومريّون ، الأكّاديون ، البابليّون).

---

(١) الترمذيّ عن معاذ.

٢ ـ إلى جهة الغرب ، سيناء ومصر ، وهم «الهكسوس وملوك الرعاة» .

ـ وفي الألف الثالثة قبل الميلاد:

خرج الكنعانيّون من الخليج العربيّ إلى جبال طوروس ، وهم:

١ ـ **الفلسطينيّون**: ليستقرّوا على أرض فلسطين .

٢ ـ **الجلعاديّون**: ليستقرّوا في خليج العقبة .

٣ ـ **الفينيقيّون**: ليستقرّوا في ساحل البحر المتوسّط (رأس شمرا) .

٤ ـ **مملكة جبيل**: التي أقيمت في شرقيّ الأرض ـ وكان يطلق اسم الهيرو على القبائل المتنقّلة شمال الجزيرة العربيّة في الألف الثاني قبل الميلاد ، حيث خرج الآراميّون ومنهم الكلدانيّون ، من جزيرة العرب إلى شمال الجزيرة .

* * *

المبحث الثاني

رحلة الإيمان

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

[الصافات: ١٠٩ ـ ١١١].

تعريف: هو إبراهيم بن تارح ،من القبائل الآراميّة التي ترجع إلى آرام بن سام بن نوح ، والتي نزحت من جزيرة العرب واستقرّت في حرّان "حاران" قرب منابع رافديّ الفرات وبليخ والخابور ، ونزح قسم منها إلى منطقة بابل في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد.

إذ ولد لتارح ابنه إبراهيم وله من العمر ٧٥ عاماً في بابل ، زمن «النمرود» الذي كان يحكم الكلدان ، والذي عاش ١٠٠٠ سنة.

وتربّى إبراهيم في «كوثا» ، ولمّا خالف قومه في عبادتهم احتجّ عليه الناس إلى أن سجن ، وبقي مستمرّاً في شرح أفكاره في عبادة الواحد الأحد صاحب الكمال والأسماء الحسنى إلى أن أخلي سبيله.

لقد كان إبراهيم شخصيّة فذّة ، فقد كان زعيماً ذا مقام سام اجتماعيّاً ودينيّاً وسياسيّاً ، واشتهر باستقامته وسموّ مبادئه ، كان أميراً من أمراء البابليين وعندما حلّ بمدينة دمشق أوّل نشأتها نصّب ملكاً عليها ، ثمّ تركها بعد مدّة ، وله آثار فيها ، وخلّد اسمه في جميع البقاع «بالمقامات التي تحمل اسمه» ، وكان يفهم لغة «لسان» جميع البلدان التي توجّه إليها ، وزار مكّة «فاران» ، وبنى بها البيت الحرام ، و يشتقّ اسم أورفه من اسم «أور» تبرّكاً ، و تغرّب إلى فلسطين ، ثمّ انحدر إلى مصر ، ثمّ انتقل إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش

وشور ، كما تغرّب إلى جيرار. كان معه ابن أخيه لوط في رحلته إلى مصر حيث أقاما فيها مدّة ، وصار له فيها ثروة.

كما أصاب لوط من غنى عمّه ، ثمّ عادا إلى كنعان وأقام إبراهيم في حيرون «الخليل» ، و ارتحل لوط إلى سهل الأردن حيث «سدوم وعموره».

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وعندما اعتدت بعض ملوك البلدان الواقعة على الفرات على مدن سهل الأردن حيث أخذوا سدوم وأسروا لوطاً مع أهله واستولوا على أملاكه ، وصل الخبر إلى إبراهيم ، فما كان منه إلاّ أن سلّح غلمانه وعبيده ، ثمّ أغار عليهم وهزمهم[1] ، واسترجع لوطاً وأملاكه ، وأعاد الأسرى ، وعند عودته: استقبله ملك سدوم ، وباركه ملك يبوس (ملكي صادق) وقال له: مبارك أبرام[2] من الربّ العليّ القدير مالك السماوات والأرض الذي أسلم أعداءك في يدك.

لقد كان إبراهيم رسولاً من الله ، يدعو إلى الله وعبادته على شريعة الإسلام في كلّ بقعة حلّ بها ، ونشر الإسلام في جميع البلاد التي حلّ بها ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٠].

إبراهيم عليه السلام في توجّهه إلى مصر تزوّج هاجر القبطيّة من أبناء الملوك بعد أن نشر الإسلام فيهم ، ثمّ عاد بأنعام وعبيد ومال من تجارته ، واستقرّ في يبوس بعد أن نجحت دعوته إلى الله ، واستقر لوط قي سدوم التي كان أهلها أشراراً.

وأثنى عليه ربّه قائلاً: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ ـ وحده ـ إماماً داعياً للحق ، قويّاً به ، ناصراً له ، ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢١] ، خاشعاً في جميع أحواله لله ، على بصيرة في دعوته ، فاتّخذه ربّه خليلاً ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

---

(١) العرب واليهود أحمد سوسه (٣٥).

(٢) أبرام: هو اسم إبراهيم.

لقد بنى في فاران[1] بيتاً لله ، يعاونه ابنه إسماعيل من زوجته هاجر .

كما بنى في يبوس[2] بيتاً لله ، يعاونه ابنه إسحاق من زوجته سارّا.

ـ من ابتلاءاته عليه السلام:

* إلقاؤه في النار بعد أن كسّر أصنام قومه التي يعبدونها مبيّناً لهم أنّها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، فليس لها عين تبصر الخطر ، ولا آذان تسمع النصح ، ولا أرجل تتحرك لتهرب من الأذى ، ولا أيدٍ تدافع بها عن نفسها ، وهي لا تضرّ ولا تنفع ، وبدلاً من أن ينصاعوا لطلبه في التفكير فيها نُكِسوا على رؤوسهم ، و قالوا: كيف تكسرها وتعتدي عليها؟

* طلب منه وهو ابن ثمانين عاماً أن يختتن ، فانصاع لأمر الله واختتن بالقَدُوم.

* لقد عاش قرابة مئة سنة دون أولاد ، ثمّ حملت زوجته هاجر القبطيّة بإسماعيل عليه السلام.

* فابتلاه ربّه بأن طلب منه أن يغيّب ـ إسماعيل ـ وأمّه في منطقة جبال فاران (الحجاز) دون ماء ولا طعام ، ولمّا انصاع لأمر الله أكرم الله الأمّ و ابنها بماء زمزم.

* ثمّ ابتلاه بأن طلب منه أن يذبح ابنه وحيده إسماعيل عليه السلام ، فلمّا انصاع للأمر هو وابنه و زوجته هاجر أكرمه ربّه بفداء كبش يذبحه ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٦ ـ ١٠٧].

ـ أولاده: من هاجر المصريّة «إسماعيل عليه السلام».

من سارّا: «إسحاق عليه السلام».

ـ زوجاته: تزوّج من قنطوره بنت أمين الكنعانيّة ، كما تزوّج رفقة بنت بتوفيل بن ناحور بن تارح ابنة عمه زوجه زلفه جارية ليئن ، منها: جاد واشبر.

---

(١) فاران: اسم مكة.

(٢) يبوس: الاسم القديم للقدس

وجميع أولاده ولدوا له في فدّان آرام.

مات وعمره ١٩٥ سنة ودفنه إسحاق ابنه في حيرون «الخليل»، نفس المقبرة الّتي دفنت فيها سارّا زوجته.

كان إبراهيم أوّل من قرى الضيفان، كما جمع كمال الخلق والدين بعد أن نشر التوحيد، وبعد مرور ١٠٠ سنة على وفاته أقام ملك يبوس «ملكي سالم» ملك الكنعانيين في يبوس حفلاً تكريميّاً لمن دعا إلى عبادة الله الواحد ونشر دين الإسلام في البلاد بين العباد، كما غيّر اسم مدينة يبوس إلى اسم البلد التي ولد فيها إبراهيم «آور»، وأضاف اسمه «سالم» إلى اسم المدينة، فصار اسم يبوس: «آورسالم» أي: مدينة السلام.

* * *

المبحث الثالث

إسحاق وتغريب يعقوب

ـ إسحاق عليه السلام: ابن إبراهيم عليه السلام ، من زوجته سارّا ، كان رسولاً نبيّاً ، عاش في يبوس «آورسالم» ، وبنى مع والده إبراهيم عليه السلام المسجد الأقصى ، وقام بالدعوة استمراراً لدعوة إبراهيم.

ومن ذريّته: يعقوب ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وأبناؤه الأسباط الإثنا عشر ، وعيصو لم يكن من الأنبياء.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢ ـ ١١٣].

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقد ولد ليعقوب ـ الّذي صار اسمه «إسرائيل» أي: عبد الله ؛ لأنّ أيل تعني الإله ـ ولد له يوسف عليه السلام وباقي الأسباط[١] الذين تآمروا على أخيهم يوسف فألقوه في الجبّ حيث بيع بعدها عبداً في مصر... إلى أن استطاع أن يأتي بأهله من أرض الكنعانيين «فلسطين» بسبب المجاعة التي أصابت البلاد إلى مصر ، بعد أن وصل إلى مركز مرموق في إدارة الميرة المصريّة والتي كانت بلاد كنعان تابعة لها ، مستخدماً مكيدة دبّرها لأهله وأخوته[٢].

---

(١) ليعقوب زوجة ليئة ، وأولادها: راؤبين ، شمعون ، لاوى ، يهودا ، يساكر ، زبولون.

(٢) انظر: قصة يوسف في القرآن الكريم.

إنّ قصّة يوسف التي قصّها القرآن الكريم الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل الحكيم الحميد ، هذه القصّة تظهر طهارة هذا النبيّ الكريم يوسف وعفافه وهو في أشدّ حالات الضغط النفسيّ ، وكونه عبداً فقيراً ، وأمام إغراءات الجمال والسلطة والشباب ، إذ قال للّتي دعته وهو في بيتها وقدّمت له من الإغراء مالا يستطيع أحدٌ أن يردّه ومن التهديد والوعيد مالا يستطيع أحدٌ تحمّله «السجن والعذاب» ، قال لها : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾

[يوسف : ٢٣] .

كما تظهر هذه القصّة حالات المكر والخبث والحسد من أخوة يوسف(بنو إسرائيل) ، و تظهر قيمة الأنبياء في أقوامهم ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف : ٢٠] .

كما وتبيّن ما يلاقيه الرسل من الأذى والابتلاء من الله على يد أقوامهم ، وصمودهم ، حتى قال : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وكذلك تظهر حسن تصرفهم في مجتمعهم ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[يوسف : ٣٦] .

ثمّ تظهر عدم دخول الحقد في قلوبهم أو التأثّر من أعدائهم ، وذلك عندما قال لأخوته الذين غدروا به : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

كما تظهر القصّة أنّ المؤمن لا وطن له ، إذ يعيش في غربة دائمة متحرّكاً باتّجاه دعوته ومن يتقبّلها ، هدفه إيصال الحقّ لأهله ، فيعقوب عليه السلام ترك أرض الكنعانيين الّتي عمّت فيها دعوة الإسلام والتوحيد من عهد إبراهيم إلى إسحاق عليهما السلام ، وجاء إلى مصر بدعوة ابنه يوسف عليهما السلام لنشر دعوة الحقّ و توحيد الخالق .

وهكذا يعمّ دين الله «الإسلام» الأرض ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

وهكذا كانت دعوة يوسف عليه السلام في مصر ومعه إخوته وأبناؤهم بنو إسرائيل يقيمون شعائر الله وينشرون دين الله ، معزّزين مكرّمين ، وتزاوجوا من المصريّين وعملوا بالتجارة وتبوّؤوا المناصب وعاشوا برغد العيش وحريّة العقيدة واحترام السلطة لهم ومحبّة الأقباط.

دخل إسرائيل وأبناؤه مصر عام ١٧٢٠ ق.م في عهد حكم الهكسوس «١٧٣٠ وحتى عام ١٥٨٠ ق.م» زمن السلالة الحاكمة السابعة عشرة في عهد الريّان بن الوليد من العمالقة.

وحسب وصيّة إسرائيل أن يدفن في حيرون «الخليل» جوار جدّه إبراهيم عليهما السلام ، كذلك كانت وصيّة يوسف عليه السلام ، أن يحمل تابوته إذا خرجوا من مصر ويدفن في حيرون.

ثمّ تتابعت الأسر الحاكمة في مصر إلى أخناتون وأمين حوتب المؤمنين بالله ودينهم الإسلام وعقيدتهم التوحيد ، ثمّ بعد وفاة أخناتون تولّت زوجته حشنبوت الملك وتابعت مسيرة الدعوة الإيمانيّة إلى أن قام فرعون رعمسيس عام ١٣٥٢ ق.م بانقلاب ونبش قبر أخناتون وهدم قصره وعزل حشنبوت ، واضطهد أعوان النظام وحارب عقيدة التوحيد وأذلّ بني إسرائيل بعد أن كانوا أصحاب نفوذ ومكانة ، وكان ذلك في عهد النبيّ موسى عليه السلام.

* * *